القدماء والمحدثون فى فرنسا

كان المذهب الأدبى الذى انتشر فى فرنسا منذ منتصف القرن السادس عشر، إلى أواخر القرن السابع عشر، مبنيًا على تقليد البلاغة اليونانية والرومانية القديمة. ولم يكن الإعجاب بالقديم لأنه قديم فقط. بل لأنها بلاغة طبيعية حقيقية، قريبة من تمثيل الطبيعة الإنسانية، والحياة المادية والعقلية، كما لاحظ النقاد الشهير بوالو. ثم هى حقيقية فى معانيها، خالية من المبالغة التى تضر بالمعنى، وخالية من الخيال الذى يبعد عن الحقيقة. وقد وصل الإعجاب بالقدماء إلى أقصى ما يمكن. حتى لقد كان يخيل إلى كبار الأدباء، أنه ليس هناك موضوع يصح أن يطرقه الكتاب والمفكرون إلا ما كان جزءًا من التاريخ القديم، أو تقليدًا لشاعر أو كاتب يونانى أو رومانى.

ولكن تشعب من هؤلاء الأدباء – الذين ربت عقولهم هذه الآداب، وهذبت من ذوقهم – فرقتان: فرقة مزجت الفلسفة بفنون الكتابة، وحرمت التقليد، وقالت إن كل إنسان له أن يعتمد على استعداده الخاص، وأن يكون دليله فى كل ما يكتب ويفكر العلم والفلسفة، وأن كل طريق يخالف ذلك يكون متهمًا فى صحته ومطعونًا فى أصله. وتظاهرت هذه الفرقة بالعداء لأنصار القديم. وفرقة أخلصت فى حبها للقدماء، وفى اقتفاء آثارهم. وهم الأدباء الخلص الذين لم ينظروا للبلاغة إلا من حيث إنها فن من فنون الجمال، ورأوا حاجاتهم شديدة إلى تقليد بلاغة القدماء للوصول إلى غرضهم، لأنها أمتن وأمتع ما تكون بلاغة وصناعة. ولذلك كانوا يدعون إلى التمسك بمذهبهم، والإعجاب بالقدماء. وكان من أنصارهم كبار الكتاب

والشعراء فى القرن السابع عشر. وقد انتشر المذهبان وتنازعا البقاء نحو أكثر من نصف قرن، أى منذ ظهور كتب ديكارت الفيلسوف (سنة ١٦٣٧) التى انتشرت منها فكرته القائلة "بأن الفكر الإنسانى سائرًا دائمًا إلى الرقى" إلى أواخر القرن السابع عشر، حين التقى شارل بيرون "Charles Perranul" قصيدته الشهيرة فى المجمع الأدبى (سنة ١٦٨٧) وافتتحها بمساواة المحدثين للقدماء، بل بفوقانهم عليهم. ووازن بين زمن لويز الرابع عشر والأزمان القديمة. فأخذ المحدثون أنصار ديكارت يظهرون وينشرون مذهبهم، وانتشر النزاع بين القدماء والمحدثين.

أثار عجاج هذا الخصام شارل بيرو، وهو أحد كبار كتاب وشعراء وأدباء القرن السابع عشر. وقد كان من المقدمين فى حظيرة الملك لويز الرابع عشر، ومن المشتغلين بالفنون، المعروفين بالذكاء وحب الجديد فى هذا العصر. ونشر كتابه المعروف "بالموازنة بين القدماء والمحدثين"[١] وهو عبارة عن حديث بين قسيس عالم ذكى يدافع عن المحدثين ويمثل المؤلف نفسه، وبين رئيس كبير وصفه الكاتب بالغباوة والتعصب، يقدس القدماء ويعجب بهم. وقد بث المؤلف أثناء هذه المحادثة ما أراد أن يثبت ويبرهن عليه، من مذهبه وآرائه فى تفضيل الحديث على القديم. وكان مدار الحديث دائرًا على هذه الفكرة الأساسية: وهى "أن القانون العام للعقول البشرية، والأفكار الإنسانية، هو التقدم والارتقاء فى العلوم والفنون، وأن المحدثين وصلوا إلى ما لم يصل إليه القدماء من الاختراع، والابتكار فى الماديات، لأنهم اطلعوا على أكثر ما عرف واطلع عليه القدماء. فكان لهم من التجربة ما لم يكن لهؤلاء. والمعرفة

(1) Paralleles des anciens des modernes. (1697 - 1688).

والعلوم ليست إلا نـتيجة التـجربة والاطلاع. فـالمحدثون إذًا أرقى وأعلم من القدمـاء، لأنهم وقفوا على مـعلوماتهم ثم على ما حـدث بعدهم من العلوم والأفكار. فلماذا إذًا لا يسبقـونهم أيضًا فى فنون الأدب والبلاغة؟ بل لابد أن يسـبقوهم فـى هذا، كما فـاقوهم فـى المخترعـات المادية والوسائـل الأخرى للمدنية الحديثة". قال: "وقد كان القدماء أطفالا فى العلوم والفنون، بالنسبة لما ظهر من نتائج العـقول والقرائح بعدهم. أما المحـدثون فإنهم يمثلون نضج الفكر، وغاية مـا وصل إليه الإنسان من الذكـاء. والأدب يبرهن على ذلك، وعلى أن كل عظيم من القدماء له ميل من المحدثين.

وقد التف بشارل بيروفونتنل "Fontenelle" أحد كبار الأدباء وألف كتابًا فى ذلك(١) أيد فيه رأى بيرو قال فيه: "إن طبيعة الإنسان واحدة فى كل زمان ومكان، قـابـله للرقى والفـلاح. فـــلابد أن يكون لدينا الآن من الـعـقـول الناضجة، والعبقرية ما كان لأهل الأزمـان الماضية. وأن الأجيال السابقة تترك للأجيال الآتيـة علومها واختـراعاتها. فعقـولنا الآن تعرف وتنقح كل الأفكار الماضية ونتائج القرائح السابقة. ذلك إلى ما نصل إليه نحن باستعدادنا الفطرى ومباحـثنا الشخصيـة. قال: "والحقيـقة أن بعض الأقاليم يساعـد على الذكاء ويربى الإدراك. وأن هناك عصورًا تدعو إلى التقهقر، وحوادث تقف حركات الأفكار والعقول، وأن هذه الحوادث قد تمنع ظهور كـثير من مواهب أصحاب العقـول والأفكار الراقية" وقال: "من الممكن أن لا يصل أحـد إلى ما وصل إليه الشعراء الأقدمون. ولكن ليس من المستحيل أن يفوقهم سواهم. بل لابد أن يكون ذلك"(٢).

(1) Digression sur les anciens et les modernes.

(2) Voir Lanson. his. Litt. Francaise, Page 598.

نرى من خلال هذا النزاع الذى احتدم بين القـدماء والمحدثين، أنه مبنى على فكرة فلسـفيـة، وأن الفلسفـة أوضح وأبين فيـه من الأدب إذ أن الفكرة الأساسية هى مسألة التقـدم والارتقاء التى هى أصل فلسفة ديكارت، المتسربة إلى الأدب، المبنية على الاهتمام بالأفكار قبل الاهتمام بالصناعة اللفظية. فإنه جعل للفكر المنزلة الأولى، وقال أن الإتقان والإبداع همـا فى متانة الموضوع، وفى الأحوال العـامة التى تولد فى نفس القراء نوعًا من السـرور والارتياح مما يقرأون. وقد زج هذا المذهب بالبلاغة فى مضـايق الفلسفة، وجعله مبنيًا على البحث عن الحقائق، بدل البحث عن مظاهر الجمال فى القول. وعلى ذلك لا يكون هناك فرق بين البلاغة والفلسفة، ولا بين الفيلسوف والكاتب والشاعر. لأن كلا منهمـا على رأى ديكارت يقرر الحقائق، غير أن الفـيلسوف قد يكون أسلوبه أجف من أسلوب الأديب. وكـان ينبغى أن تكون هذه الـبلاغة المبـنية على مثل هذا المذهب الفلسفى الصرف، عن كل مـعنى من معانى الجمال مما هو خاص بالفنون، وسبب تفوقهـا. وكان هذا يكون عند أنصار الجديد الذين لم يفهـموا البـلاغة، ولم ينظروا إليـها إلا من جـهة أنهـا تعبر وتبـحث عن الحقائق. ولكن الذوق الأدبى فى فـرنسا كانت هذبته الآداب القديمة بمـا فيها من الجمال. ولذلك بقـيت البلاغة فنًا من الفنون الجمـيلة. ولم يتغلب العلم والفلسفة على محـو ميزة البلاغة وهى الجمال فى القول وفى حـسن التعبير. وامتزجت الحقائق العلمية بالحقـائق الفنية، وأصبح البحث عن الحقائق سالكًا طرق الجمال. ولم يغير مذهب ديكارت الفلسفى من أثر الجمال وأثر الصناعة الأدبية. وأصـبحت "وظيفة" البـلاغة القديمـة التوفيق بين الجمـال وصناعة الكلام، وبين الآراء الصحيحة والحقائق الممتعة.

وقد انضم إلى أنصـار الجديد الأدباء والظرفاء الذين كـانت تدور عليهم رحى المحاورات فى المجتمعـات، وساعدهم فى ذلك النساء الأدبيات، اللائى كن يعجبن من المحدثين بذوقهـم الأدبى، الموافق لأذواقهن، لأن طريقة أنصار القديم كانت ثـقيلة على نفوسهن ككل شىء مـتين جدى، والنساء يعـجبهن الخفة وعـدم التعمق فى الأفكار، ولذلك كن من أنصار بيـرو وفونتنل. وكان الناس فى ذلك العصر فى حاجة لأن تكون بلاغتهم أقرب إلى الاجتماع الذى يعيشـون فيه، منها إلى الاتـصال بتاريخ القدمـاء. فإن تقليد القدمـاء كان قد وصل إلى أقصى مـا يمكن، والشىء إذا بلغ النهاية انقـلب إلى ضده. فكان لموافـقة الظرفـاء وأهل الخلاعـة، والنسـاء الأدبيات، المحـدثين أثر عظيم فى الحركة الأدبية الجديدة. لأن ذلك كـان من الأسباب التى منعت البلاغة من أن تسـير فى طـريق فلسفـى صرف، بل سلكت مـسلكًا فنيًـا، وتعـانق الأدب والفلسفة، وتآخت الصناعة الأدبية وفنون الكلام الجميلة التى ورثها الفرنسيون من البلاغة القديمـة، مع الأفكار الفلسفية المتينة ولبثـت البلاغة ثوبًا جديدًا، وصارت ترمى إلى تمثيل الاجتماع.

هذه نتيجة الخصام الذى كان بين القدماء والمحدثين فى فرنسا. وهذا هو أثره فى البلاغة الفرنسية. وكان من جراء هذا النزاع أنه استل من القرن السابع عشـر آداب القرن الثـامن عشـر، التى أجدر بهـا أن تسمى فلسـفة لا آدابًا، وانقلبت الأفكار انقلابًا عظيـمًا، وظهر العلماء أصحـاب الموسوعات (Ency-clopedistes) الذين كانت فكرتهم الأساسية هى التقدم والارتقاء.

هذه الحركة نقلت النقد إلى البحث والتنقيب فى القديم والحديث. وكاد يكون القرن الثامن عشر خـاليًا من أثر واضح المنقد الأدبى. لأن الأدب نفسه

كان فـى عصر انتـقال، فلـم يكن النقد قـد تمكن بعد من بناء أسـاس يرتكز عليـه. على أنه قد ظهـرت عدة كتب ومـباحث لكـثير من النـقاد والأدباء، ولكنها لم تؤسس مـذهبًا، ولم تبن رأيًا متـينًا، بل كانت أشبـه بآراء فردية، وإرشادات للأدباء والكتاب. وعندما أشرقت شمس القرن التاسع عشر ظهرت فى عـالم الأدب والاجتمـاع سيـدة أدبية عـالمة، جالت الأقطار والأرضـين، وصرفت زمنًا طويلا فى ألمانيا، ثـم رجعت إلى بلادها فى نحو سنة ١٨٠٣، هذه هى مدام دى ستال (Madame de Stael). وقد ظهر كتـابها "البلاغة" أو الآداب (La literature) وكتابهـا "ألمانيا" (L,Allemgne) فى سنة ١٨١٠ فكان من الوسائل التى نشرت فى فرنسا الأفكار الأجنبية، وأظهرت للعالم الفرنسى ما لم يكن يعرفه خارج "منطقة" عقله ومباحثه القومية.

وقـد رأينا أن منهج البـلاغة فى فـرنسـا كان تابعًـا للبـلاغـة اليونانيـة والرومـانية فـقط، أما الآن فـقد ظهـرت الموازنة بين بلاغات الأمم الأخـرى والبلاغة الفرنسية، واتجهت الأفكار إلى أن فى الجديد ما يصح أن يعجب به، وأخـذ النقـد يسـير فى طريق آخـر، ويدعـو إلى التـأمل فى بلاغـات الأمم الأخرى، فخطى خطوة جديدة، وهى: أن الأدب صورة الاجتماع (La litera-ture est l,expression de la soeiete) وأن الكتابـة الأدبية زيادة عمـا فيـها من فنون الكلام وضـروب الإعجـاب، بها شىء آخـر غيـر ذلك: وهو قيـمتـها التاريخـية. وأنه لابد أن يلاحظ الناس أن هناك صلة متـينة بين بلاغات الأمم ومدنياتهم المختلفة، لأنها دليل عليها وعلى مقدار ما أنتجته العقول والقرائح.

ثم عـمل النقاد على ربط الكتـابات الأدبية بالوسـائل والأسبـاب التى أنتجـتها، خلافًـا لما كان معـروفًا عندهم من فهم البـلاغات بقطع النظر عن

الأسباب والحوادث والأزمان. وجعلوا النقد جزء من التاريخ العام، فأخذ النقد شكلا آخر بدخول القرن التاسع عشر.

ثم جاء سنت بوف (Sainte Beufe ١٨٠٤ - ١٨٩٦) أكبر النقاد وأستاذهم جميعًا، ودفع بالنقد الأدبى فى طريق جديد. فإنه لم يكتف بفهم الأدب من البيئة أو من العوامل الأخرى، بل أراد أن تكون صلة الأدب بين الكتاب أنفسهم، وبين أمزجتهم وخواصهم النفسية والعقلية. فكان مذهب سنت بوف من المذاهب التى ساعدت التاريخ العام على كشف حقائق النفوس والأفراد، وصار النقد عبارة عن (معمل تحلل) فيه النفوس وخواصها، وأصبح إحدى وسائل علم النفس. وعلم سنت بوف الباحثين والقراء كيف يقرأون، وكيف يبحثون، واتسعت على الباحثين دائرة معرفة الرجال ووسائل ذلك، ووصل سنت بوف إلى ترتيب العقول فصائل فصائل، لأن النقد عنده عبارة عن تاريخ طبعى للعقول والنفوس، تميز منها القوى من الضعيف، والأفكار العلمية من العقول الخيالية.

ومذهب سنت بوف فى النقد من أعدل المذاهب وأقربها إلى الطريقة الأدبية. وقد ترك فى كتاباته النفسية (Psycologiques) المعروفة "بحديث الاثنين" مجموعة من التاريخ الطبعى للنفوس والأفكار لا توجد عند أمة أخرى، ولا فى أدب غير الأدب الفرنسى. وهو أول من جعل النقد الأدبى وسيلة من وسائل علم النفس[١].

(١) قال: "النقد هو أن يعرف الإنسان كيف يقرأ، وأن يعلم غيره كيف يقرأ ويفهم" وقال: "ما أريده من النقد هو إيجاد نوع من الجاذبية والإقبال يدعو القراء إلى كشف الحقائق" وقال: "لم يبق لى إلا نوع من السرور: وهو جمع العقول "وتحليلها تحليل" النباتى=

وجملة القول أن سنت بوف كان يهتم "بشخصيات" الكتاب والشعراء أ:ثر من غيرهم. فلم يكن من غرضه أن يعرف الاجتماع وآثاره من جولات الكتاب وميادين الفصاحة، بل كان يبحث عن الأمزجة الخاصة وصور النفوس من خطوات الأقلام فى الصفحات والطروس. وكانت جميع أحكامه على المؤلفات أحكامًا على المؤلفين أنفسهم. وكان يقفو أثر المؤلف ويرافقه فى منزله وحياته الخاصة، ويشرف عليه وهو عند أصدقائه وفى مجتمعاته، ويتجسس عليه ليقف على أسراره النفسية وعواطفه وميوله، ويعرف منه الخبيث والطيب، وعلو النفس وانحطاطها، وعقله وفكره وأهواءه . . . .

كل هذا ليعرف الكاتب وآراءه ومؤلفاته، وبذلك أيضًا يتوصل إلى صلة ذلك بأسباب عامة تتصل بالمدنية العامة.

***

=للأعشاب لأنى أردت أن أؤسس علم التاريخ الطبعى للعقول". وقال أيضًا: "قد تكون الأحكام المبنية على الأذواق صحيحة، ولكن النقد لم يصح الآن عبارة عن أحكام مبنية على قواعد البلاغة لا غير، لأن تاريخ الأدب تغير، وأصبح كالتاريخ الطبيعى: عبارة عن عمل مجموعات من الأفكار والعقول، وملاحظة ما بها من الخواص النفسية، ثم الحكم عليها بناء عن تجربة تامة صحيحة" وقال أيضًا: "إن الإنسان فى حاجة دائمة لتجديد ملاحظاته ونظراته فى الرجال، ووصفهم وصفًا تامًا ليعرفهم حق المعرفة، وإلا عرض نفسه للخطأ، وخمل غيره على الوقوع فى خطئه. وليس من حق إنسان أن يدعى معرفة الرجال فيقول أنى أعرف كل رجل. بل كل ما يمكن أن يقوله هو: أنى أبحث عن معرفة الرجال.